المنهج الاجتماعي في تفسير القرآن الكريم

The Sociological Method in the Interpretation of the Glorious Qur'an

حيدر نجم عبود [١]

Haider Najim Abood

ا.م.د محمد حسين عبود[٢]

Assist. Prof. Mohammad H. Abood

الخُلاصة

كان المنهج الاجتماعي في تفسير القرآن الكريم وما يزال الأسلوب التفسيري ذو النزعة العرفية الأقرب إلى أفهام المجتمع وعقولهم على مختلف مستوياتها؛ لأن هذا اللون من التفسير يُلامس قضايا المجتمع ويستشعر آلامه ويساهم في معالجة العديد من المسائل الواقعية، وهذه الدراسة تُقدم عرضاً واضحاً لمفهوم المنهج الاجتماعي وأثره في التفسير وبيان خصائصه وشروطه وآليته واهدافه، وتسليط الضوء على حجمه في الدراسات القرآنية التفسيرية والإشارة إلى رواد هذا المنهج ووضع اليد على نماذج تمثل الفكرة التطبيقية لهذا المنهج.

الكلمات المفتاحية: المنهج الاجتماعي، تفسير القرآن الكريم.

Abstract

The social approach to interpreting the Holy Qur'an was and still is the interpretive method with the customary tendency closest to society's

١- جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية.
٢- جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية.

understanding and minds at all levels. This is so because this type of interpretation touches community issues, senses its pain and contributes in addressing many real-life issues. This study provides a clear presentation of the concept of the social approach and its impact on interpretation. It further shows its characteristics, conditions, mechanism and goals, highlighting its importance in Qur'anic interpretive studies and pointing out the pioneers of this approach. Some samples that represent the practical idea of this approach are also mentioned.

المقدمة

يحظى تفسير القرآن الكريم عند المسلمين قاطبة بأهمية كبيرة، ولأجل ذلك وضعت المناهج المختلفة وتنوعت طرقه وتعددت مصادره، فقد كان القرآن الكريم ولا يزال هو الملهم الدائم والصائب لنهضة الأمة وتقدمها، لأنه يحوي بين دفتيه بلسماً شافياً لجراحات الأمة وآلامها، بما يتوافر فيه من بصائر وهدى تتناسب مع مشاكل الإنسان المتجددة، بيد أن المشكلة التي رافقت تعامل المسلمين دوماً مع القرآن الكريم، تكمن في أسلوب الاستفادة الضعيفة من بصائره.

وعلى هذا سعى المفسرون وبذلوا جهدهم الجهيد من أجل استنطاق النص القرآني، وبيان دلالات آياته الكريمة بالاعتماد على عدة طرق، فمنهم من اعتمد على طريقة تفسير القرآن بالقرآن، ومنهم من اعتمد على بيانات الأئمة ورواياتهم –عليهم السلام– ومنهم من مزج بين الطريقين و...الخ، إلى أن ظهر في الآونة الأخيرة طريقة تفسير للنصّ القرآني تعتمد على المنهج الاجتماعي، حيث يتم في هذه الطريقة إظهار المفاهيم الحركية للقرآن الكريم، وبيان دلالاته الحيوية، وإبراز معالم النهضة الإسلامية والإنسانية، عبر حمل هموم الواقع الإنساني وطرح قضايا الأمة على القرآن الكريم، واستخراج الحلول الناجعة لمشاكل المسلمين، بألفاظ بسيطة، وطريقة سهلة في التعبير، بحيث لا يكون التفسير عبارة عن طلاسم وأبحاث فلسفية، لا يفك رموزها إلاّ العارفون بها والمتخصصون في مسائل التفسير وعلوم القرآن.

المبحث الأول:

المطلب الأول: تعريف المنهج الاجتماعي

تعريف المنهج الاجتماعي تارةً يكون بالمعنى الافرادي وأخرى يكون بالمعنى الاضافي المركب، وبيانهما كما يلي:

أولاً: توضيح المنهج الاجتماعي بالمعنى الافرادي:

١. المنهج لغةً: من النَهجُ وهو الطريق، وطريقٌ نَهجٌ: أي بَيِّنٌ واضح، ومَنْهجَ الطريق وضَّحهُ، وانهج الطريق: وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيّناً[٣].

٢. المنهج اصطلاحاً: عُرِّفَ المنهج في الاصطلاح بتعريفات عديدة تتفاوت قليلاً في مدلولاتها، ولعل ذلك ناشيء من اختلاف متطلبات موضوعاتهم وترتيب افكارهم، فقد عرفه عبد الرحمن بدوي بقوله: ((هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة والعلوم بوساطة طائفة من القواعد العامة، تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة))[٤].

أما الشيخ عبد الهادي الفضلي (ره) فعرفه قائلاً: ((هو مجموعة من القواعد العامة يعتمدها الباحث في تنظيم ما لديه من أفكار أو معلومات من أجل أن توصله إلى النتيجة المطلوبة))[٥].

تعقيب: يتضح لي من خلال الاصل الأولي للكلمة في اللغة، وكذا من خلال المعنى الاصطلاحي للمفردة خصوصاً ما اورده عبد الرحمن بدوي، أن النسبة بينهما هي نسبة العموم والخصوص مطلقاً، إذ المنهج لغة مطلق الطريق الواضح سواء كان حقاً أو باطلاً، بينما هو في الاصطلاح خصوص الطريق الكاشف عن الحقائق وليس مطلق الكشف.

٣. الاجتماع لغةً: الجمع مصدر جمعتُ الشيء، والجمع أسماً لجماعة الناس، والجمع حيث يجمع الناس، وهو أيضاً اسم للناس، والجماعة عدد شيء وكثرته، والمسجد الجامع نعت به لأنه يجمع اهله[٦].

٤. الاجتماع اصطلاحاً: الاجتماع يعني اجتماع الجماعة، ويطلق اسم جماعة من الاشخاص الذين تقوم بينهم علاقات اجتماعية منتظمة ويوجد بينهم قدر من التعاون[٧].

ثانياً: بيان المنهج الاجتماعي باعتباره مركباً اضافياً:

وبإضافة كلمة (المنهج) إلى مفردة (الاجتماع) ينتج لنا الطريقة الاجتماعية في تحليل الواقع والافكار والنصوص. وبخصوص القرآن الكريم يكون المنهج الاجتماعي: هو الطريق ذو القواعد الخاصة التي يسلكها المفسِر للكشف عن دلالة الآيات المباركة، ومحاولة الإشارة إلى مصاديق جديدة لمواضيع الآيات القرآنية في الكون والحياة [٨].

٣- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الافريقي المصري (ت٧١١هـ) لسان العرب، مادة (نهج) دار صادر، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، بلا ط، بيروت — لبنان، ج١٢: ص ١٤٣. وانظر: الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، ج ١: ص ٢٥١.
٤- بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، ط ٣، ١٩٧٧م، وكالة المطبوعات، الكويت: ص ٥.
٥- الفضلي، عبد الهادي، أصول البحث، ط ٢، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م، دار الكتاب الإسلامي، بيروت- لبنان: ص ٥١.
٦- الفراهيدي، الخليل بن احمد، العين، مادة (الجمع) ط ٢، ١٤٠٩هـ، دار الهجرة، ج ١: ص ٣١٣.
٧- محمد الجوهري، المدخل إلى علم الاجتماع، ط ٢، ٢٠٠٧م، القاهرة — مصر: ص ٧٨.
٨- معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب،

مفهوم المجتمع عند فقهاء الامامية: فقد ورد ذكره على لسان جملة من فقهاء الامامية اكتفي بذكر تعريف السيد الشهيد محمد باقر الصدر (ت:١٤٠٠هـ) حيث قال فيه: ((هو الوجود المجموعي للناس باعتبار ما بينهم من علاقات وصلات قائمة على اساس مجموعة من الأفكار والمبادئ المسندة بمجموعة من القوى والقابليات))[٩]

المطلب الثاني: أهميته في الدراسات التفسيرية:

تظهر أهمية هذا اللون من التفسير عبر معالجته لمختلف انواع القضايا الاجتماعية من خلال ملاحظته للآيات الكريمة ذات الطابع الاجتماعي وابراز المعالجات القرآنية لمختلف الظواهر والمشاكل ذات الصلة بالمجتمع، سواء منها ما يتصل بالظواهر المنحرفة كظاهرة التفكك الاجتماعي وتشتت وحدة المسلمين، فتأتي المعالجة القرآنية لتؤكد: ﴿إِنَّمَا المؤمِنُونَ إِخوَة...﴾[١٠]. أو ما يتصل منها بالظواهر الايجابية كظاهرة العمل الجماعي بمختلف انواعه، وخصوصاً ما يتعلق منها بالدفاع المقدس عن الدين والأهل والوطن، والتي تمثلت بأبرز صورها في واقعنا المعاصر عبر ظاهرة الحشد الشعبي المجاهد، فإن القرآن الكريم أشار إلى هذا البُعد التعاوني بقوله تعالى: ﴿..وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البِرِ وَالتَّقوَى وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثمِ وَالعُدوَان...﴾[١١] حيث يُعد هذا التلاحم البطولي من ابرز مصاديق هذه الآية المباركة. بعد الإيمان بأن الثورة ضد الظالمين دفاعاً عن القيم النبيلة واحقاق الحق من افضل اعمال البر والخير[١٢]. لذلك كانت أهمية التفسير الاجتماعي للقرآن الكريم بوصفه الكتاب الذي لا يحده زمان أو مكان عن استمرارية العطاء الالهي لبني البشر العلامة البارزة لأصحاب هذا المنهج، إيماناً منهم بضرورة الانطلاقة الواقعية نحو النص التي تغاير الاتجاه التقليدي في الأوساط العلمية، هذا الاتجاه الكلاسيكي غالباً ما يجعل المفَسِر في تماس مع النص فقط دون الملاحظة الدقيقة للواقع الاجتماعي.

وقد أشار الشهيد الصدر إلى أن العلاقة الصامتة مع النص القرآني هي التي شلت حركة الإنتاج التفسيري إلى حدِّ تصريحه بنص هام جداً يُشكك فيه على الأقل في جدوى الجهود التفسيرية التي اعقبت النتاجات الهامة في التفسير كتفسير الطبري والطوسي والرازي[١٣]، وهذا يعني إن إدخال الواقع في عملية التفسير شرط أساسي للخروج بإبداعات تفسيرية تنهض بالواقع الاجتماعي للأمة.

٩- الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية: ص ٤٢.
١٠- سورة الحُجرات: آية ١٠.
١١- سورة المائدة: آية ٢.
١٢- انظر: الشيخ محمد جواد مغنية، مقاومة الإنسان للعدوان: ص ١٠٥.
١٣- الصدر، محمد باقر، المجموعة الكاملة، ط ١، دار التعارف، بيروت- لبنان، ج ١٣، المدرسة القرآنية: ص ٣٣.

هذا النمط من التفسير لم يكن وليد اللحظة، بل له عمق تاريخي متجذر مع الأصالة الإسلامية منذ انطلاق حركة الرسالة على يد الرسول الأكرم –صلى الله عليه وآله وسلم– وأهل بيته الطيبين الطاهرين، إذ إن ما أود الاشارة إليه هو أن أهمية التفسير الاجتماعي عند المفسرين جاءت من خلال عاملين أساسيين هما:

العامل الأول: القرآن الكريم، فإن طبيعة الخطاب القرآني في اغلب مناحيه اتجه نحو الخطاب الاجتماعي حيث أن (الطبيعية ليست طبيعة فردية، فعادةً الحديثُ يأتي في القرآن بلغة المجتمع، متقين، مؤمنين، كفار، مشركين، منافقين، وهكذا...)[١٤]. هذه المادة القرآنية شكلّت النواة لأولى نحو المعالجات القرآنية لمختلف الظاهر الاجتماعية سواء منها ما يتصل بالجانب العقيدي كالحديث عن طبيعة بعض الأمم والحضارات والمجتمعات التي تشكو الانحراف العقائدي، أو ما يتصل بالجانب التشريعي للمجتمعات وطريقة معالجة القرآن للانحراف الاجتماعي ما أدى بمرور الوقت إلى تشكّل علم أسباب النزول القرآني الذي يؤكد أن الآيات القرآنية كانت تنزل (حسب مقتضيات الشؤون اليومية الاقتصادية منها أو الاجتماعية أو الاحداث والوقائع)[١٥] وهكذا فإن القرآن الكريم كما تناول العقائد والأحكام التكليفية للإنسان فإنه قام ببيان الكثير من المباحث المتعلقة بالحياة الاجتماعية والفردية للإنسان، وهذا البعد القرآني له ماضٍ بعيد، وكان مورد اهتمام المفسّرين، حيث تناولوا الآيات المتعلقة بالجانب الاجتماعي بالبحث والتفسير[١٦] لذلك نلحظ بوضوح قضية تدرج القرآن الكريم في إنزال احكامه كقضية التدرج في تحريم الخمر على مراحل متعددة.

العامل الثاني: السنَّة المطهرة، حيث أن جانب من جوانب (عملية التغيير التي مارسها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وأصحابه الاطهار، هذه العملية حينما تُلحظ بوصفها عملية متجسدة في جماعة من الناس وهم النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– والصحابة، بوصفها عملية اجتماعية متجسدة في هذه الصفوة، وبوصفها عملية قد واجهت تيارات اجتماعية مختلفة من حولها واشتبكت معها في ألوان مختلفة من الصراع والنزاع العقائدي والاجتماعي والسياسي والعسكري)[١٧] وكذا ما قام به أهل بيت النبوة –عليهم السلام– حيث عملوا على تغيير الواقع الاجتماعي بقدر ما تسنح لهم الفرصة، والواقع التاريخي لمسيرة الأئمة أكبر شاهد على ذلك.

من هنا نلاحظ أن الفقهاء والمفكرين الإسلاميين الذين ركزوا على القضايا والمسائل الاجتماعية، أخذوا بعين الاعتبار الأساس النقلي* كدليل على مشروعية عملهم وتفسيرهم للنص القرآني وفق المنهج الاجتماعي. لذا فإن أهمية هذا المنهج في العملية التفسيرية لا يقتصر على كونه الطريقة التي تقترب من واقع

١٤– المدرسي، محمد تقي، رؤى في طريق العودة، ط١ – ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، مركز الحضارة للثقافة والنشر: ٩٧.

١٥– آراسته، حسين جوان، دروس في علوم القرآن، ط١– ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، مطبعة باقري، نشر: المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية، قم– إيران: ٧٩.

١٦– الاصفهاني، محمد علي الرّضائي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، تعريب: قاسم البيضاني، ط٣– ١٤٣٦هـ– ٢٠١٤م، مطبعة زلال كوثر، نشر: مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر: ٢٨١.

١٧– الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية: ٣٦.

*– القرآن وسنة المعصومين.

الحياة وتُلامس قضايا الأمة فحسب، بل في كونه احدى الطرق التي احتواها النص القرآني في موضوعاته، وكذا ما سارت عليه سنّة المعصومين –عليهم السلام–. وهو ما يحقق جانب الشرعية لهذا المنهج التفسيري فيما إذا لم يخرج عن إطار القيم العليا لمفاهيم الوحي الالهي.

المطلب الثالث: آليته في التفسير:

إن ما نعبّر عنه بالنهج الواقعي والاجتماعي هو أكثر أنواع التفسير شيوعاً في عصرنا، وخاصة في القرنين الأخيرين، إثر المواجهة المحتدمة بين العالم الاسلامي والغرب المتجدِّد، وانعكاسات ذلك على التفسير، وقد أشار بعض المحققين إلى تأثيرات أفكار وأنشطة السيد جمال الدين الأسد آبادي (ت ١٣١٥هـ) وتلميذه الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ) في هذا الاتجاه[١٨]. وقد أشار الشيخ جعفر السبحاني إلى صدارة السيد الافغاني وتلميذه عبده، حيث قال: (إنّ النظرة الفاحصة في التفاسير التي ألّفت في الفترة قبل القرن الرابع عشر يعرب عن ان الطابع العام لها هو تفسير الآيات القرآنية، وتبيين مفرداتها، وتوضيح جملها، وكشف مفاهيمها بمعزل عن المجتمع ومسائله ومشاكله، من دون أن يستنطقوا القرآن من أجل وضع الحلول المناسبة لمعاناتهم مع أن الواجب على المسلمين الرجوع إلى القرآن لمعالجة دائهم... والحق أن القدامى لم يولوا العناية بهذا الجانب من التفسير إلاّ شيئاً يسيراً، وأوّل من فتح هذا الباب على مصراعيه هو السيد جمال الدين الأسد آبادي... وتبعه تلميذه ومن تربى في احضانه، الإمام الشيخ محمد عبده)[١٩].

تنصب جهود المفسرين ضمن إطار المنهج الاجتماعي عبر التركيز على كل ما يبعث الحيوية والنشاط والفاعلية في الفرد والجماعة والمجتمع والأمة أو الدولة، ومن هنا جاءت تسميته بـ(الاجتماعي) وهو بذلك يستهدف رسم منهج فاعل وحركي للعمل الديني والدعوي والاجتماعي والسياسي[٢٠].

إذ يعمد أصحاب هذا المنهج إلى الآيات التي تبيّن المسائل الاجتماعية، والاهتمام بمشاكل المسلمين في العصر الحاضر، وتطبيق آيات القرآن على الحياة المعاصرة، واستخراج علاج المشاكل الاجتماعية من القرآن[٢١] فقد رسم محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ) في تفسيره منهجاً تربوياً للأمة الإسلامية، يبعث مقوماتها،

١٨– شيفابور، دكتور حامد، من وحي القرآن تفسير اجتماعي ذو نزعة واقعية، ترجمة حسن علي حسن، مجلة الاجتهاد والتجديد، العدد ١٩، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، مؤسسة دلتا للطباعة والنشر، بيروت– لبنان: ص ٩٥.

١٩– السبحاني، الشيخ جعفر، المناهج التفسيرية في علوم القرآن، ط ٤، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، مؤسسة الإمام الصادق–عليه السلام– ، قم – إيران: ١٠٤– ١٠٥.

٢٠– آل موسى، الشيخ علي، التدبر الموضوعي في القرآن الكريم، إعداد: عبد العزيز حسن آل زايد، ومحمد حسن آل زايد، وموسى سعيد البحارنة، ط ١، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، دار كميل، بيروت– لبنان: ١٠٧.

٢١– الاصفهاني، محمد علي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن: ٢٨٢.

ويثير أمجادها، وينادي بآداب القرآن من الشجاعة والكرامة والحفاظ... ومما تميّز به منهجه في التفسير معالجته للمسائل الاجتماعية في الأخلاق والسلوك[٢٢].

وقد أكد سيّد قطب (ت ١٣٨٨هـ)على أن ((السمة في القرآن سمة الواقعية والحركية؛ لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميه وأهدافه، أنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني، لا بدّ من هذا لإدراك وجهة النصّ وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حيّ، ويواجه حالة واقعة كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده، وهذه الرؤية ضرورية لفقه احكامه وتذوقها كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية، وعلى الأخصّ فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية))[٢٣].

وإلى ذلك أشار سماحة السيد محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١هـ) وهو يتحدث عن تجربته التفسيرية قائلاً: ((وانطلقتْ هذه الدوروس في خطّ عملي متحرك يركز على استيحاء أجواء القرآن من أجل أن نعيش تلك الاجواء في حياتنا الإسلامية الصاعدة؛ لأن القرآن ليس كلمات لغوية تتجمّد في معناها اللغوي، بل هي كلمات تتحرك في أجواء روحية وعملية))[٢٤] وكذلك تحدث سماحة السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله) عن تدبره في كتاب الله المجيد حيث قال:((وفي الوقت نفسه شرعتُ في تأليف تفسيري (من هدى القرآن) وركزتُ فيه على منهجية التحرّك في الأمة، فالتفسير كان كتاباً يتحدّث عن التيار الإسلامي وكيفية مواجهته مع الجهات الأخرى، بالذات عند استعراض قصص الأنبياء مع أممهم، فهذه التجربة كوّنت لديّ منهجية خاصة في الاستفادة من الآيات القرآنية))[٢٥].

يتضح لي من خلال ما تقدم أن المنهج الاجتماعي هو عبارة عن تفعيل حركة المفاهيم القرآنية على أرض الواقع، والتمسك بمنظومة قيم الوحي الالهي. فإن مفاهيم العدل باقية وتتمثل بأشخاص يحملون قيم العدالة، وكذا مفاهيم الظلم باقية ولها مصاديق كثيرة على ارض الواقع، وهكذا باقي المفردات. إذ إن الخطاب القرآني لم يختص بمرحلة دون اخرى، ولا مجتمع دون آخر.

٢٢- معرفة، الشيخ محمد هادي، التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، مؤسسة الطبع في الآستانة الرضوية المقدّسة، مشهد- إيران، ج ٢: ١٠١٢- ١٠١٣.

٢٣- فطب، سيد، في ظلال القرآن، ط ١٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار العلم للطباعة والنشر، جدة- السعودية، ج ٤: ص٢١٢٢.

٢٤- فضل الله، السيد محمد حسين، من وحي القرآن، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الزهراء، بيروت- لبنان، ج ١: ٩.

٢٥- المدرسي، السيد محمد تقي، العقل والتأويل أصول المنهجية القرآنية المعاصرة، حوار اجراه معه: الشيخ فيصل العوامي والشيخ عبد الغني عباس، مجلة (القرآن نور) العدد ٣، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ١٠١.

المبحث الثاني: رواد المنهج الاجتماعي ضوابطهم وتطبيقاتهم في التفسير

حاز المنهج الاجتماعي في التفسير أهمية كبير من بين مناهج التفسير القرآنية وكان له التأثير الواضح على المنظومة الاجتماعية بشكل عام، إذ لاقَ قبولاً واسعاً بين الشرائح الاجتماعية المختلفة بسبب ملامسة هذا النوع من التفسير اغلب قضايا الأمة الواقعية، وهنا استعرض بعض رواد هذا المنهج والتعريف بمدوناتهم التفسيرية:

المطلب الأول: رواد المنهج الاجتماعي وابرز مدوناتهم التفسيرية

عكفت شريحة من المفسِّرين والباحثين على تحقيق العصرية للقرآن الكريم من خلال الحث على المنحى الاجتماعي الذي يركّز على استقصاء المدلولات الاجتماعية للنصّ، وربط ذلك بأسئلة الواقع المعيش واحتياجات المسلمين فيه[٢٦] حيث يشير اغلب الباحثين ورجال التفسير إلى أن السيد جمال الدين الأسد آبادي (ت١٣١٥هـ) صاحب حركة اجتماعية كبيرة مما دعاهم إلى عده أول من سار على الاتجاه الاجتماعي في مصر، ثم تلميذه محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ)[٢٧] ثم جاء محمد رشيد رضا واستمر التفسير الاجتماعي على هذا المنوال... فكان الشيخ أحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ) وسيد قطب (ت ١٣٨٥هـ) ومحمد جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) والعلّامة الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ) والشيخ ناصر مكارم الشيرازي (دام ظله) وآية الله الطالقاني، والشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ)[٢٨] والسيد محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١هـ) والسيد محمد تقي المدرسي (دام ظله) ومحمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) وسعيد حوى (ت ١٤٠٩هـ)[٢٩] هؤلاء هم ابرز من سار على المنهج الاجتماعي في تفسيرهم لآيات القرآن الكريم. ويدخل ضمن هذا الإطار السيد الشهيد محمد باقر الصدر (ت١٤٠٠هـ) حيث وضع أُسس عملية الفهم الاجتماعي للنص القرآني ولكن بصورة أدق وأكثر ترتيباً وبياناً عبر طرحه لمنهج التفسير الموضوعي. إذ سجل أن المفسِّر لا يبدأ عمله من النَّص بل من واقع الحياة، فيركّز نظره على موضوع من موضوعات الحياة، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حيال ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثمّ ينتقل إلى النصّ القرآني ليبدأ حواراً معه، هو يسأل والقرآن يُجيب[٣٠]

وقد تنوعت تفاسير أصحاب المنهج الاجتماعي على النحو التالي:

٢٦- كسار، جواد علي، قراءة معاصرة في النصّ القرآني، ط ١، ٢٠٠٨م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت- لبنان: ٥٩

٢٧- السبحاني، السيخ جعفر، المناهج التفسيرية في علوم القرآن: ١٠٤.

٢٨- الاصفهاني، محمد علي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن: ٢٨١- ٢٨٢.

٢٩- آل موسى، الشيخ علي، التدبر الموضوعي في القرآن الكريم: ١٠٧- ١٠٨.

٣٠- كسار، جواد علي، قراءة معاصرة في النصّ القرآني: ٦٩.

١. تفسير جزء عمّ، للشيخ محمد عبده
٢. المنار، محمد رشيد رضا
٣. محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي
٤. الأساس، لسعيد حوّى
٥. في ظلال القرآن، لسيّد قطب
٦. من وحي القرآن، للسيد محمد حسين فضل الله (قدس سره)
٧. من هدى القرآن، للسيد محمد تقي المدرسي (دام ظله)[٣١]
٨. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي
٩. الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي (رحمه الله)
١٠. تفسير نمونه، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي (دام ظله).
١١. الكاشف، للشيخ محمد جواد مغنية
١٢. الفرقان في تفسير القرآن، الدكتور محمد الصادقي الطهراني
١٣. مخزن العرفان، السيدة نصرة بنت محمد أمين المشهورة بالسيد الاصفهانية
١٤. منشور جاويد، للشيخ جعفر السبحاني.
١٥. تفسير نور، الاستاذ محسن قراءتي[٣٢].
١٦. تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت.
١٧. صفوة الآثار والمفاهيم، عبد الرحمن بن محمد الدوسري[٣٣]

المطلب الثاني: خصائص المنهج الاجتماعي وابرز مميزاته

كان لهذه المدرسة التفسيرية الحديثة عدة خصائص ومميزات انفردت بها عن المدارس التفسيرية الاخرى، بحيث اضحت اليوم من أبرز المدارس التفسيرية في عالمنا المعاصر. ولعل ابرز ما اختص به اصحاب المنهج الاجتماعي في التفسير هو ما يلي:

١. وقفوا من الروايات الاسرائيليّة موقف الناقد البصير فلم تشوّه التفسير بما شوّه به كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التي أحاطت بجمال القرآن وجلاله فأساءت إليه وجرّأت الطاعنين عليه.

٣١- كسار، جواد علي، قراءة معاصرة في النص القرآني: ١٠٧- ١٠٨.
٣٢- الاصفهاني، محمد علي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن: ٢٨٣- ٢٨٤.
٣٣- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، أصول التفسير ومناهجه، ط٤، ١٤١٩هـ، مكتبة التوبة، الرياض- المملكة العربية السعودية: ١٠٥.

٢. لم تغترّ هذه المدرسة بما اعتر به كثير من المفسّرين من الاحاديث الضعيفة أو الموضوعة، التي كان لها أثر سيّئ في التفسير

٣. ابتعد اصحاب المنهج الاجتماعي عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون والفلسفة والكلام، التي زُجّ بها في التفسير(٣٤).

٤. التحرر من قيود التقليد وإعمال العقل في الأقوال والآراء المروية في الآيات وفهم كتاب الله من دون نظر إلى مذهب إمام دون إمام على وجه يكون القرآن هو المتبع دون مذهب الإمام.

٥. الاهتمام ببيان نظم الاجتماع ومشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأُمم عامة، وبيان علاجها بما أرشد إليه القرآن من أُصول وتعاليم.

٦. التوفيق بين القرآن والنظريات العلمية على وجه لا يكون القرآن مخالفاً للعلم(٣٥).

٧. إبراز البُعد التربوي الفردي.

٨. إضاءة البُعد التربوي الاجتماعي.

٩. بلورة البُعد التربوي السياسي(٣٦).

إضافة إلى بعض الخصائص والمميزات الاخرى التي احتواها هذا اللون من التفسير.

تعقيب: يبدو لي أن اصحاب المدرسة الاجتماعي في التفسير سلكوا طريقين رئيسيين في منهجهم التفسيري. وهما:

الطريق الأول: أنهم عملوا على هدم وإزالة جميع المعوقات التي تحول دون بلوغهم هذا اللون من التفسير، لذلك لم يعترفوا بالروايات الاسرائيليّة وتركوا العمل بالاحاديث الضعيفة وأزالوا عن أنفسهم اغلال المقولات المذهبية ففتحوا الطريق وعبّدوه لسلوكهم هذا المنهج وأزالوا من أمامهم جميع المعوقات والعراقيل.

الطريق الثاني: وهو طريق البناء الواعي للفهم الصحيح للنص القرآني واحياء مفاهيم القرآن ضمن الأطر الاجتماعية، واظهار قيم الدين الحنيف بأسلوب معاصر وواقعي بعيد عن الخرافة والأوهام، وبيان عالمية القرآن الكريم وأنه لجميع المراحل الزمنية.

اعتمد اصحاب هذا اللون من التفسير في الأعم الاغلب على المنهج العقلي في فهم الآيات القرآنية وهو ما دعا بالبعض إلى أن يُبدي تخوفه من هذه الطريقة خشية انحراف عملية تفسير النص القرآني حسب الاهواء والمشتهيات فقد أشكل الدكتور محمد حسين الذهبي (ت ١٣٣٧هـ) بأنّه يعطي مساحة كبيرة للعقل

٣٤- معرفة، الشيخ محمد هادي، التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب، ج ٢: ١٠٠٩- ١٠١٠.
٣٥- السبحاني، السيخ جعفر، المناهج التفسيرية في علوم القرآن: ١٠٥.
٣٦- آل موسى، الشيخ علي، التدبر الموضوعي في القرآن الكريم: ١٠٧.

في التفسير ويقوم بتأويل بعض الحقائق الشرعية إلى المجاز أو التمثيل، ولهذا فهو يقترب من منهج المعتزلة[٣٧] وكذا صرّح السيد كمال الحيدري قائلاً: ((كثيراً ما يكون هذا المنهج التفسيري مطيّةً لمن يهدف دعم ما يؤمن به وما يعتقده، فيُحمّل النصّ القرآني ما يعتقده هو، ويلوي عنق النصّ باتّجاه ما يُريد مُعتقداً بأن هذا مغفور له ما دام مجتهداً ومن هنا ينبغي الحيطة والحذر من الوقوع في توجيه النصّ باتّجاه قصديات سابقة على النصّ، فهذا النوع لا يخرج عن كونه تفسيراً بالرأي))[٣٨] ومعنى التفسير بالرأي هو ((أن يقدّم المرء معنىً لآية أو حديث وفقاً لما يشتهيه دون أن تؤيده قواعد وضوابط فهم الكلام واصول الحوار العقلائي، وهذا يدل على عدم مقبولية هذا النمط من التفسير))[٣٩] ورغم التصريح المتقدم للسيد الحيدري إلاّ أنه لم يرفض كل ما انتجته هذه المدرسة، بل هو يؤمن ويلتزم بالاجتهاد في التفسير وإعمال العقل شريطة أن تتوفر الأرضية الدليلية القطعية أو ما هو قريب منها[٤٠] إذ إن التفسير بالرأي لا يخرج عن كونه استحساناً وترجيح ظني[٤١]. في الوقت الذي يرى فيه الشيخ معرفة أن هذه المدرسة اعطت للعقل حرية واسعة النطاق... وحكمت العقل الرشيد على كل مظاهر الدين[٤٢] حيث يقوم المفسِّر في هذا اللون من التفسير بالتسلُّح بسلاح الحرية الفكرية في مواجهة الروايات الضعيفة والموضوعة في التفسير، كما أن المفسِّر الذي يميل إلى النزعة الاجتماعية يؤكِّد على هذه الحقيقة القائلة بأنّ القرآن الكريم لم ينزل لأبناء عصر دون عصر آخر[٤٣] هذه النزعة العقلية في التفسير عند اصحاب المنهج الاجتماعي استندت إلى الأساس القرآني في حديثه عن العقل والتعقل في بيان موضوعاته فقد تحدث الشيخ مغنية عن ذلك قائلاً: ((لقد أشاد الإسلام بالعقل واحكامه، ودعا إلى تحرره من التقاليد والأوهام، ونعى على العرب وغير العرب الذين لا يفقهون ولا يعقلون، ويؤمنون بالسخافات والخرافات، وقد أنزل الله في ذلك عشرات الآيات، وتواترت به عن الرسول الأعظم – صلى الله عليه وآله وسلم – الاحاديث والروايات، وأفرد له علماء المسلمين أبواباً خاصة في كتب الحديث، والكلام، والأُصول))[٤٤] أما جملة الآيات التي تحدثت عن العقل والتعقل سأكتفي بذكر بعضها، وهي كما يلي:

٣٧– الذهبي، الدكتور محمد حسين، التفسير والمفسرون، ط ٢، ١٣٣٥هـ – ١٩٧٦م، دار الكتب الحديثة، القاهرة– مصر، ج٢:٥٤٧– ٥٥٠.

٣٨– الحيدري، السيد كمال الدين، منطق فهم القرآن، تقرير: الدكتور طلال الحسن، ط ١، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٣م، مؤسسة الهدى، بيروت– لبنان، ج ١: ٥٨.

٣٩– اليزيدي، الأستاذ محمد تقي مصباح، تعدد القراءات، ترجمة: ماجد الخاقاني، ط ٢، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م، دار التعارف للمطبوعات، بيروت– لبنان: ٢٥.

٤٠– الحيدري، السيد كمال الدين، منطق فهم القرآن: ٥٨.

٤١– الصغير، الدكتور محمد حسين علي، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، ط ١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، دار المؤرخ العربي، بيروت– لبنان: ١٠٠.

٤٢– أنظر: معرفة، الشيخ محمد هادي، التفسير والمفسِّرون في ثوبه القشيب، ج ٢: ١٠١٠.

٤٣– شيفابور، دكتور حامد، من وحي القرآن تفسير اجتماعي ذو نزعة واقعية، مجلة الاجتهاد والتجديد: ٩٦.

٤٤– مغنية، الشيخ محمد جواد، الشيعة في الميزان، تحقيق وتعليق: سامي الغريري الغراوي، ط ١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، دار الكتاب الإسلامي، بيروت– لبنان: ١٧٣.

ورد فِعلُ العقل في القرآن الكريم في تسعةٍ وأربعين موضعاً، ولم يَرِد بشكل مصدر مطلقاً، وكل أفعال العقل تدلُّ على عملية الإدراك والتفكير والفهم لدى الإنسان، ويمكن حصر هذه الأفعال بما يأتي:

١. ورد فعل العقل بصيغة (تعقلون) في أربعٍ وعشرين موضعاً في القرآن.

أ- منها قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٤٥)

ب- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٤٦)

٢. وورد بصيغة (يعقلون) في أثنين وعشرين موضعاً، منها قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(٤٧)

٣. وورد بصيغة (يعقِلُها) مرةً واحدة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعالِمُونَ﴾(٤٨)

٤. وورد بصيغة (نعقل) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٤٩)

٥. وورد بصيغة (عقلوه) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٥٠).

وكذلك ورد في ألفاظ أخرى مثل، الألباب، والقلب، والفكر، وغيرها من المعاني التي تؤدي معنى العقل في القرآن الكريم.

ومن خلال ذلك يتضح أهمية العقل في القرآن الكريم ودوره في الكشف عن الحقائق، ولعل أجمل ما قرأت عن العقل في وصية الإمام موسى بن جعفر -عليه السلام- لتلميذه هشام بن الحكم، وكيف يفصّل القول في العقل، ويستشهد بآيات الكتاب العزيز في بيان دوره في معرفة الدين وتلقي الحقائق. لذا لا غنى عن استخدام العقل الحصيف السائر بهدى الوحي الالهي وسنَّة المعصومين -عليهم السلام- في تفسير القرآن الكريم وبيان موضوعاته.

المطلب الثالث: تطبيقات المنهج الاجتماعي في التفسير

بعد الاستقراء الناقص الذي اجريته على بعض التفاسير ذات الطابع الاجتماعي، لم اجد التزاماً واضحاً عند أصحاب هذا المنهج بالطريقة التي فسّروا فيها آيات الكتاب العزيز، بل كان لهم أكثر من لون وذائقة تفسيرية ظهرت من خلال كلماتهم وبيانهم لمعاني الآيات القرآنية، ولكن مع ذلك نستطيع القول أن الإطار العام لهذه التفاسير هو الإطار الاجتماعي وإن دخلت بعض الفروع على الخط. وإليك نماذج تطبيقية عن أهم ثلاثة تفاسير سارت على هذا المنوال:

٤٥- سورة البقرة: ٢٤٢.
٤٦- سورة يُوسُف: ٢.
٤٧- سورة البقرة: ١٧١.
٤٨- سورة العنكبوت: ٤٣.
٤٩- سورة الملك: ١٠.
٥٠- سورة البقرة: ٧٥.

١. تفسير المنار، إنشاء الشيخ محمد عبده، وإملاء السيد رشيد رضا، وهو تفسير حافل وجامع، ولكنه غير كامل يشتمل على أثني عشر مجلّداً وينتهي عند الآية (٥٣) من سورة يوسف، كان من أوّل القرآن إلى الآية (١٢٦) من سورة النساء بإنشاء الشيخ عبده، وتقرير السيد رشيد رضا، ومن بعده سار السيّد رضا في التفسير متّبعاً منهج الشيخ في تفسيره للآيات حتى سورة يوسف[٥١].

أ- وكان من منهجه الاجتماعي أنه ذكر في الأصول والقواعد الشرعية العامة في سورة البقرة عدة قواعد كان من ضمنها ما جاء في القاعدة التاسعة عشر، عند تفسيره للآية القرآنية: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[٥٢] حيث قال: ((إتيان البيوت من أبوابها لا من ظهورها، أي طلب الأشياء بأسبابها من دون غيرها، فلا تجعل العادة عبادة، ولا العبادة عادة، ولا تطلب فنون الدنيا من نصوص الدين (أنتم أعلم بأمور دنياكم) كما قال خاتم النبيين -ﷺ- وأصل هذه القاعدة الآية المذكورة، فالزراعة والتجارة والصناعة وفنون الحرب وآلاته وأسلحته أبواب لا يصل إليها إلاّ من يدخل منها، ولعقائد الدين وعباداته وآدابه وحلاله وحرامه أبواب معروفة من كتاب الله وسنة رسوله، ولأصول تشريعه السياسي أبواب من النصوص والاجتهاد معروفة أيضاً، فما اعتيد في هذه القرون الأخيرة من قراءة صحيح البخاري في المساجد لأجل النصر على الأعداء مخالف لهذه القاعدة))[٥٣].

تعقيب ومناقشة: هذا الكلام منه (رحمه الله) يدل على الروح الحركية والنفس الاجتماعي عنده، وهو تراه يوجه أبناء المجتمع إلى تفعيل حركة النهضة الإسلامية من خلال نظم الأمور وطرق الاستفادة منها بأسبابها الواقعية الصحيحة. إلاّ أنه لم يكن موفقاً في قوله: (لا تطلب فنون الدنيا من نصوص الدين) ولعله قصد عدم وجود فنون الدنيا في النصوص الشرعية على نحو التفصيل إلاّ إن ذلك غير واضح من عبارته، بل إن ظاهر كلامه يدل على إن هناك فصلاً بين ما يطلب للدنيا فيجب السعي فيه ضمن نطاقه بعيداً عن النصوص الشرعية وما يطلب للدين فيجب اخذه من النصوص، وهذا خلاف الواقع إذ إن النصوص الشرعية هي الموجه الحقيقي لبني البشر، وإن هدى الوحي الالهي هو المرشد لمسيرة الحياة الإنسانية نحو الخير والسلام في الدنيا والآخرة. فإن نصوص الوحي جاءت لهدى البشرية وتنظيم حياتهم الاجتماعية والفردية، ولا تقتصر النصوص الشرعية على بيان الحلال والحرام فقط. نعم لا توجد تعاليم الحياة الإنسانية في القرآن

٥١- معرفة، الشيخ محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ط ٤، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م، الجامعة الرضويّة للعلوم الإسلامية، ج ٢: ١٠١١.

٥٢- سورة البقرة: آية ١٨٩.

٥٣- عبده، الشيخ محمد، تفسير المنار، تقرير: السيد محمد رشيد رضا، ط ٢، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م، دار المنار، القاهرة- مصر، ج١: ١١٦.

الكريم على نحو التفصيل، ولكن القرآن رسم الخطوط العامة وبين القيم الكبرى فالشريعة الإسلامية تقر كل معاملة جديدة شريطة أن لا تخالف قيم ومبادئ الإسلام.

ب- وقد ذكر في القاعدة الثانية والعشرون، فقال: ((ليس من هديه (الإنسان) أن يترك المسلمون ومعايشها وسياستها ويكونوا فقراء أذلاء، تابعين للمخالفين لهم من الأقوياء، ولا ان يكونوا كالأنعام لا همَّ لهم إلاّ في شهواتهم البدنية))[٥٤].

نشاهد في هذا النص استنهاضه للجيل المسلم بأن لا يكونوا ضعفاء تابعين لغيرهم من المتسلطين الظالمين. ويحث الأمة الإسلامية على الأخذ بأسباب القوة، لتكون الامة عزيزة قوية.

٢. النموذج الثاني الذي نعرض له هو تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي (رحمه الله) فأنه لم يغفل هذه النزعة في تفسيره بل أغناها بأبحاث عديدة عالج فيها مسائل ضرورية ومواضيع معاصرة وكبيرة، فعن (المرأة) عقد بحثاً واسعاً تعرض فيه للأدوار الحالكة التي عاشتها في ظل الأمم السالفة حين كانت ممتهنة الحقوق وضيعة الوزن، ثم عرج على دورها ومكانتها في ظل الإسلام، وما أبدع لها من وزن ومكانة إلى جانب الرجل لاشتراكها معه في الإنسانية، وبعد بحث مسهب في بيان حقوقها وواجباتها في ظل الإسلام، عرض لبيان مأساوية المرأة في ظل الجاهلية الحديثة والمدنية الغربية[٥٥].

وتحدث عن (المرابطة) في المجتمع الإسلامي، وتناول المفسر فيها الإنسان وطبيعته الاجتماعية مؤكداً ضرورة هذا الاجتماع الإنساني، وعرج على بيان عناية الإسلام بالاجتماع الإنساني وبرابطة الفرد والمجتمع.

وعقد المفسر أبحاثاً أخرى في مواضيع شتى عنيت بـ((بنية المجتمع الإسلامي، نشير إليها، مثل كلامه في الارث، والتوبة، والأخوة، والدعاء، والجهاد، ونفي الاكراه في الدين، والانفاق، والأخلاق، وتأثير الإيمان، والرق، والزكاة، والسعادة والشقاء، والقصاص، وأمور أخرى في التوحيد، والعدل الإلهي لمواجهة الملحدين، والجاحدين بأنعم الله سبحانه وإبطال ما لديهم من شكوك وشبهات))[٥٦].

على سبيل المثال يذكر سماحته عند تفسيره سورة الروم آية ٢٧-٣٩. في موضوع فطرية الدين ومعناه، ثم يتعرض ضمن ذلك إلى مدنية الانسان وقضايا المجتمع فيقول: ((وينتهي التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض في العمل التعاوني، ثم يقسم الحاصل من الأعمال بين الجميع ويعطي منه لكل ما يستحقه، وكيف كان فالمجتمع الإنساني لا يتم انعقاده ولا يعمر إلاّ بأصول علمية وقوانين اجتماعية يحترمها الكل وحافظ يحفظها من الضيعة ويجريها في المجتمع وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرف عليهم السعادة))[٥٧].

٥٤- عبده، الشيخ محمد، تفسير المنار، تقرير: السيد محمد رشيد رضا: ج١: ١٣٠

٥٥- انظر: الطباطبائي، السيد محمد حسين، ج٢: ٢٦٠- ٢٧٧.

٥٦- الأوسي، الاستاذ علي، الطباطبائي ومنهجه في التفسير، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، منظمة العمل الإسلامي، مطبعة سبهر، طهران- إيران: ١٨٨.

٥٧- الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، دار الأندلس، ج ١٦: ١٧٣.

وتطرق في تفسيره إلى كثير من المسائل ذات الصلة بالمجتمع وقضايا الأمة، ولعل أبرز ما لفت نظري هو إشارته اللطيفة حول موضوع الحرية الاجتماعية وكيفية المحافظة عليها، حيث قال: ((أن الاجتماع لا يقوم على ساق إلاّ بسنن وقوانين تجري فيه... فلا مناص من أن يفدي المجتمعون بعض حريتهم قبال القانون والسنة الجارية بالحرمان من الانطلاق والاسترسال ليسعدوا لذلك بنيل بعض مشتهياتهم وإحياء البعض الباقي من حريتهم، فالإنسان الاجتماعي لا حرية له قبال المسائل الحيوية التي تدعو إليه مصالح المجتمع ومنافعه))[٥٨].

مما تقدم يتضح أن السيد الطباطبائي (رحمه الله) بهذه الأبحاث وغيرها يكشف عن شعوره العميق بالمسؤولية الإسلامية، ورؤيته الاصلاحية الواعية، التي ساهم بها في رفد الواقع الإسلامي بأبحاث قرآنية تلامس واقع الحياة الإنسانية، وتحمل معها الحلول الناجعة، حتى ساد تفسيره على اغلب تفاسير المكتبة الإسلامية. كما اهتم الطباطبائي في تفسيره بوضع ابحاث مستقلة لها عنوانات رئيسية كالبحث الروائي، البحث الفلسفي، البحث الاجتماعي، البحث النفسي، البحث الاخلاقي، البحث التاريخي، البحث الحقوقي الاجتماعي.

٣. الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره (الكاشف) لقد تمثّل الأساس الأول لمفسّرنا بطبيعة رؤيته لكتاب الله. إذ دأب بعضهم على أن يجد في كتاب الله كتاباً علميّاً، أو فنيّاً أو موسوعة في التاريخ أو الكلام أو الفلسفة وغير ذلك، ثم يكون لهذه النظرة انعكاسها المباشر على المحتوى التفسيري... إذ ينساق المفسّر لتضخيم المعاني التي تنسجم مع رؤيته، بحيث تطغى على الأبعاد الأخرى وتطمسها، حتى إنّه يختزل كتاب الله في البعد الذي يختاره ويميل إليه. أمّا شيخنا مغنية فلا ينظر إلى كتاب الله إلاّ كونه كتاب هداية، وإصلاح وتشريع، يهدف قبل كل شيء إلى أن يحيا الناس جميعاً حياة تقوم على أسّس سليمة [٥٩] لم يهتم سماحته كثيراً باللغة كما أهتم المفسرون القدامى، بل أهتم بجانب التبسيط في عرض الفكرة على القارئ ومحاولة إقناعه بالمنطق والعقل.ولهذا يقول: ((أهتم جماعة من المفسرين القدامى أشد الاهتمام باللغة، وأطالوا في بيان السر لأعجاز الكلمة والأسلوب... بما لا يجدي شيئاً، ولا يدخل تحت ضابط.. ولذا لم أتعرض لشيء من هذا النوع. وإذا كان لكل تفسير لون يغلب عليه، فإن اللون الذي يغلب على تفسيري هذا هو عنصر الإقناع، إقناع القارئ بأن الدين بجميع أصوله وفروعه، وسائر تعاليمه يستهدف خير الإنسان وكرامته وسعادته، ومن انحرف عن هذا الهدف فقد

٥٨- م ن، ج ١٠: ٣٢٨.
٥٩- كسار، جواد علي، محمد جواد مغنية حياته ومنهجه في التفسير،: ١٨٢- ١٨٣.

انحرف عن حقائق الدين وصراط الحياة القويم.. وكي أصل إلى هذه الغاية حاولت جهدي أن يجيء الشرح سهلاً بسيطاً واضحاً، يفهمه القارئ في أي مستوى كان))[٦٠].

لقد أشتهر سماحة الشيخ محمد جواد مغنية بـ (مفسر جيل الشباب) لكونه خاطب جيله بلغتهم لا بلغة الحوزات العلمية وطلاسم الكتب الفقهية لذلك نراه يقول حول الامر: ((أنّ التفسير تماماً كالفن ينبع من ظروف محلية.. ومن هنا اتجهت بتفسيري إلى إقناع الجيل بالدين اصولاً وفروعاً، وأنه يسير مع الحياة جنباً إلى جنب))[٦١] وكون التفسير الكاشف من بين أكثر التفاسير انتشاراً ومرغوبيةً من خلال احتوائه على مل يلي:

١. الشفافية والوضوح.
٢. النقد وجرأة اللغة [٦٢].
٣. جدلية الخطاب والواقع.
٤. المنحى العملي التطبيقي.
٥. جدة الإنتاج والإبداع التفسيري.
٦. جدل المعرفة والإيمان [٦٣].
٧. التركيز على المدلول الاجتماعي. وبهذا الصدد يقولل الدكتور عبد الجبار الرفاعي: ((ويبدو المدلول الاجتماعي للقرآن بأجلى صورة في تفسير الكاشف للشيخ محمد جواد مغنية الذي قال عن تفسيره: (حاولت أنّ أطبق القرآن على حياتنا، وأربطها بأفعالنا ما استطعت) وأشبعه بالمشاغل الهموم اليومية للمجتمع، وعبّر عن رؤية القرآن حيالها بيان ميّسر يفهمه كل أحد، ولم يتكلف فيه لغة خاصة بالنخبة؛ ولهذا كان تفسير الكاشف من أوفر التفاسير حظاً من الانتشار بين القراء))[٦٤].

فمثلاً إذا اردنا أن نأخذ الجزء السابع من تفسيره الكاشف سنجد العناوين التالية: ضربت الذلة على إسرائيل بحكم التوراة، الوثنية في عصر الفضاء، الدولة الإسلامية، القرآن وسياسة الحرب... الاخوة الدينية والأخوة الإنسانية، كيف تكسب الأصدقاء، الله والمعرفة الحسّية، المادة والحياة، الأجر حق والزيادة تفضّل، الإسلام وقادة الفكر الأوربي، صدر المجلس، الدول الصديقة و...الخ.

٦٠- مغنية، الشيخ محمد جواد، التفسير الكاشف، ط٤، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، مطبعة ستار، بيروت- قم- إيران: ج ١: ١٣.

٦١- مغنية، التفسير الكاشف، ج١: ١١٣.

٦٢- المصطفى،الشيخ حسين علي، موقعه الإلكتروني.

٦٣- حب الله، الشيخ حيدر، معالم المنهج التفسيري عند الشيخ محمد جواد مغنية،، بحث منشور على الموقع الإلكتروني. لسماحة الشيخ حيدر حب الله.

٦٤- الرفاعي، عبد الجبار،الاتجاهات الحديثة في التفسير، مقال منشور في شبكة الإمامين الحسنين -عليهما السلام- للتراث والفكر الإسلامي. تاريخ نشر المقال ٢٠١٠/١٠/٢٦.

وهكذا نجد من خلال هذه العينات أن الشيخ مغنية كان يعالج عادةً موضوعات تهمّ الجيل الصاعد، والمثقف، والمتدين، والسائل المستفهم. وإليك بعض النماذج التي يلاحظ فيها الشيخ مغنية قضايا الواقع الاجتماعي وما تعيشه الإسلامية:

النموذج الأول: عند تفسيره لسورة البقرة الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ... فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[٦٥].

ذكر قائلاً: ((لم ينته الحديث عن اليهود ومشاكلهم، والآتي كثير... والصورة التي نستخلصها لليهود من آيات القرآن انهم يضاعفون النشاط لنشر الفساد في الأرض، ويتمادون في الغي كلما دعاهم داع إلى الهداية والاستقامة، حتى كأنهم فطروا على معصية الله، ومخالفة الحق... لقد طردهم الملك أدوار الأول من انكلترا، ونكل بهم هتلر في المانيا بعد الاختبار والعلم بحقيقتهم))[٦٦].

النموذج الثاني: تطرق عند تفسيره لسورة المائدة الآية ٥١، إلى موضوعات وقضايا تهم الوضع الاجتماعي ومصير الأمة الإسلامية، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذَينَ آمَنُواْ لَا تَتَخِذُواْ اليَهُودَ والنَّصَارى أَولِيَاءَ بَعضُهُم أَولِيَاءُ بَعضٍ...﴾[٦٧].

فقد أجمع المفسرون على أن المراد بعض اليهود أنصار بعض، وبعض النصارى أنصار بعض، وليس المراد أن كل طائفة توالي الأخرى؛ لأن ما بين الطائفتين من العداء أكثر مما بين النصارى والمسلمين، فإن اليهود يرمون مريم بالفاحشة، والمسلمون يقدسونها ويبرأونها من كل عيب[٦٨].

وليس من شك ان المفسرين قد استوحوا هذا المعنى من العصر الذي عاشوا فيه، حيث لا شركات بترول عالمية، ولا مؤسسات احتكارية نهمة إلى التوسع والسيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها، أما اليوم وبعد أن قامت هذه الشركات والمؤسسات فقد رأى أصحابها المسيحيون في اليهود خير وسيلة يعتمدون عليها لتدعيم احتكاراتهم واطماعهم، ومن أجل هذا أقاموا دولة إسرائيل في فلسطين وحرصوا على تعزيزها وحمايتها، ورسموا لها خطط العدوان والتوسع، وتعهدوا بالوقوف إلى جانبهم في الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وتعلقت هي بأذيالهم، ودارت في فلكهم... وإذا عقد المستعمرون وأذنابهم الآمال على مخالب إسرائيل فإنا نعتمد على الله، وعلى حقنا المشروع، واستعادة إيجابيتنا استعداداً للمعركة الحاسمة لاسترداد الحق السليب[٦٩].

٦٥- سورة البقرة: ٨٤- ٨٦.
٦٦- مغنية، التفسير الكاشف، ج١: ١٤٣- ١٤٤.
٦٧- سورة المائدة: آية ٥١.
٦٨- مغنية، الشيخ محمد جواد مغنية، مقاومة الإنسان للعدوان، تحقيق عبد الحسين مغنية، ط ٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار الجواد ع، بيروت- لبنان: ١١١.
٦٩- مغنية، التفسير الكاشف، ج٣: ٧٣- ٧٤.

وكذلك قال عند تفسير سورة الروم الآية: ﴿ظَهَرَ الفَسادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَت أيدِي النَّاس...﴾[٧٠] قال جماعة من المفسرين: المراد بالبحر هنا البلاد القريبة من البحر، وبالبر البلاد البعيدة عنه، وقال آخرون: المراد بالبحر المدينة لكثرة سكانها، وبالبر القرية لقلتهم. والذي نفهمه نحن أن البر والبحر كناية عن كثرة الفساد وانتشاره... وإذا وصف الله سبحانه عصر الجاهلية بظهور الفساد براً، وبحراً حيث لا أسلحة كيمياوية ولا قنابل نووية، ولا شركات للاستغلال والاحتكار، ولا كازينوهات وخلاعات فبأي شيء نصف عالم اليوم الذي يهدده الفناء والدمار الشامل في كل لحظة... ولا سبيل لأمن البشرية وصيانتها من هذا الخطر إلاّ أن تدمر هذه الاسلحة تدميراً كاملاً، أما هيئة الأمم المتحدة ومعاهدة التجارب الذرية الجزئية فإنها لم تحقق للبشرية ما تثق به وتطمئن إليه[٧١].

يظهر لي بوضوح من خلال هاذين النموذجين استحضار الواقع الاجتماعي عند الشيخ مغنية حاملاً معه كل همومه وآلامه وقضاياه الكبرى، بحيث بات تفسيره (الكاشف) مرآة لواقع الأمة برؤية قرآنية. وهذا الأثر الاجتماعي لم يقف عند الشيخ مغنية في تجربته التفسيرية فقط، وإنما تعداه إلى المسائل الفقهية وطريقة استنباط الاحكام الشرعية، وهو ما دعا بالسيد الشهيد محمد باقر الصدر(ش ١٤٠٠هـ) أن يسجل أعجابه الكبير بموسوعته الفقهية (فقه الإمام جعفر الصادق عليه السلام) حيث ذكر الشهيد الصدر قائلاً: ((أكبر الظن أنها أول مرة أقرأ فيها لفقيه إسلامي، من مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، أوسع نظريّة لعنصر الفهم الاجتماعي للنصّ، يعالج فيها بدقّة وعمق الفرق بين المدلول اللغوي –اللفظي– للنصّ، والمدلول الاجتماعي، ويحدّد للمدلول الاجتماعي حدوده المشروعة))[٧٢].

الخاتمة:

في ختام هذا البحث توصل الباحث إلى أهم النتائج المتولدة عن الموضوع، وهي كالتالي:

١. يُعد المنهج الاجتماعي في التفسير من التفاسير الفاعلة ذات الطابع الحركي في طرح المفاهيم وعرض الدلالات القرآنية.

٢. اتضح لي رغم أهمية المنهج الاجتماعي في العملية التفسيرية إلاّ أنه ما زال بحاجة إلى ضوابط وأُسُس رصينة تمثل قواعد ينطلق منها المفسر في عمله، وما ذُكر من ضوابط لا ترتقي إلى درجة أهمية هذا النوع من التفسير.

٧٠– سورة الروم: آية ٤١.

٧١– مغنية، التفسير الكاشف، ج٦: ١٤٧.

٧٢– الصدر، السيد محمد باقر، ومضات، ط ١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، إعداد: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، مركز الأبحاث التخصّصية للشهيد الصدر، مطبعة شريعت، قم– إيران: ١٨٥.

٣. تبين لي أن المنهج الاجتماعي في التفسير أقرب المناهج لواقع الأمة، وأفضلها ملامسة لقضاياها الاجتماعية.

٤. يبدو لي أن من خلال ما مر معي في البحث، مظلومية هذا اللون من التفسير ومظلومية المفسرين ذاتهم، حيث لا تسلط عليهم الأضواء ولا يتم قراءة سيرتهم لتتعرف الأمة على رجالاتها الذين حملوا هموم الواقع بكل فيه وحاولوا ان يستخرجوا الحلول لواقعهم الاجتماعي من خلال الرؤية القرؤية القرآنية.

قائمة المراجع والمصادر

- القرآن الكريم

١. الرفاعي، عبد الجبار،الاتجاهات الحديثة في التفسير، مقال منشور في شبكة الإمامين الحسنين –عليهما السلام– للتراث والفكر الإسلامي. تاريخ نشر المقال ٢٠١٠/١٠/٢٦.

٢. المصطفى،الشيخ حسين علي، موقعه الإلكتروني.

٣. حب الله، الشيخ حيد، معالم المنهج التفسيري عند الشيخ محمد جواد مغنية، بحث منشور على الموقع الإلكتروني، لسماحة الشيخ حيدر حب الله.

٤. كسار، جواد علي، محمد جواد مغنية حياته ومنهجه في التفسير.

٥. مغنية، الشيخ محمد جواد، التفسير الكاشف، ط٤، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، مطبعة ستار، بيروت– قم– إيران.

٦. شيفابو، دكتور حامد، من وحي القرآن تفسير اجتماعي ذو نزعة واقعية، مجلة الاجتهاد والتجديد.

٧. ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الافريقي المصري (ت٧١١هـ) لسان العرب، مادة (نهج) دار صادر، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م، بلا ط، بيروت– لبنان.

٨. آراسته، حسين جوان، دروس في علوم القرآن، ط١– ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، مطبعة باقري، نشر: المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية، قم– إيران.

٩. آل موسى، الشيخ علي، التدبر الموضوعي في القرآن الكريم، إعداد: عبد العزيز حسن آل زايد، ومحمد حسن آل زايد، وموسى سعيد البحارنة، ط ١، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، دار كميل، بيروت– لبنان.

١٠. الاصفهاني، محمد علي الرّضائي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، تعريب: قاسم البيضاني، ط٣– ١٤٣٦هـ– ٢٠١٤م، مطبعة زلال كوثر، نشر: مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر.

١١. الأوسي، الاستاذ علي، الطباطبائي ومنهجه في التفسير، ط ١، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، منظمة العمل الإسلامي، مطبعة سبهر، طهران– إيران.

١٢. الحيدري، السيد كمال الدين، منطق فهم القرآن، تقرير: الدكتور طلال الحسن، ط ١، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٣م، مؤسسة الهدى، بيروت– لبنان.
١٣. الذهبي، الدكتور محمد حسين، التفسير والمفسرون، ط ٢، ١٣٣٥هـ – ١٩٧٦م، دار الكتب الحديثة، القاهرة– مصر.
١٤. الرومي، فهد بن عبد الرحمن، أصول التفسير ومناهجه، ط٤، ١٤١٩هـ، مكتبة التوبة، الرياض – المملكة العربية السعودية.
١٥. السبحاني، الشيخ جعفر، المناهج التفسيرية في علوم القرآن، ط ٤، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، مؤسسة الإمام الصادق–عليه السلام–، قم– إيران.
١٦. الصدر، محمد باقر، المجموعة الكاملة، ط ١، دار التعارف، بيروت– لبنان.
١٧. الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، ط١، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، مؤسسة الثقلين، كربلاء– العراق.
١٨. الصدر، السيد محمد باقر، ومضات، ط ١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، إعداد: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، مركز الأبحاث التخصّصية للشهيد الصدر، مطبعة شريعت، قم– إيران.
١٩. الصغير، الدكتور محمد حسين علي، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، ط ١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، دار المؤرخ العربي، بيروت– لبنان.
٢٠. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط ١، ١٤٣١هـ– ٢٠١٠م، دار الأندلس.
٢١. الفراهيدي، الخليل بن احمد، العين، مادة (الجمع) ط ٢، ١٤٠٩هـ، دار الهجرة.
٢٢. المدرسي، السيد محمد تقي، العقل والتأويل أصول المنهجية القرآنية المعاصرة، حوار اجراه معه: الشيخ فيصل العوامي والشيخ عبد الغني عباس، مجلة (القرآن نور) العدد ٣، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.
٢٣. المدرسي، محمد تقي، رؤى في طريق العودة، ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، مركز الحضارة للثقافة والنشر.
٢٤. اليزيدي، الأستاذ محمد تقي مصباح، تعدد القراءات، ترجمة: ماجد الخاقاني، ط ٢، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م، دار التعارف للمطبوعات، بيروت– لبنان.
٢٥. بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، ط ٣، ١٩٧٧م، وكالة المطبوعات، الكويت.
٢٦. شيفابو، دكتور حامد، من وحي القرآن تفسير اجتماعي ذو نزعة واقعية، ترجمة حسن علي حسن، مجلة الاجتهاد والتجديد، العدد ١٩، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، مؤسسة دلتا للطباعة والنشر، بيروت– لبنان.

٢٧. عبده، الشيخ محمد، تفسير المنار، تقرير: السيد محمد رشيد رضا، ط ٢، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م، دار المنار، القاهرة- مصر.

٢٨. فضل الله، السيد محمد حسين، من وحي القرآن، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الزهراء، بيروت- لبنان.

٢٩. قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط ١٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار العلم للطباعة والنشر، جدة- السعودية.

٣٠. كسار، جواد علي، قراءة معاصرة في النصّ القرآني، ط ١، ٢٠٠٨م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت- لبنان.

٣١. محمد الجوهري، المدخل إلى علم الاجتماع، ط ٢، ٢٠٠٧م، القاهرة- مصر.

٣٢. معرفة، الشيخ محمد هادي، التفسير والمفسِّرون في ثوبه القشيب، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م،مؤسسة الطبع في الآستانة الرضوية المقدّسة، مشهد- إيران.

٣٣. مغنية، الشيخ محمد جواد مغنية، مقاومة الإنسان للعدوان، تحقيق عبد الحسين مغنية، ط ٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار الجواد ع، بيروت- لبنان.

٣٤. مغنية، الشيخ محمد جواد، الشيعة في الميزان، تحقيق وتعليق: سامي الغريري الغراوي، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، دار الكتاب الإسلامي، بيروت- لبنان.

٣٥. آل موسى، الشيخ علي، التدبر الموضوعي في القرآن الكريم.

٣٦. الاصفهاني، محمد علي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن.

٣٧. الفضلي، عبد الهادي، أصول البحث، ط ٢، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م، دار الكتاب الإسلامي، بيروت- لبنان.